﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤﴾ [المؤمنون: 73 - 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

من الأدلّة على أنَّ الإسلام دينُ ربِّ العالمين اختيارُ مُحمَّدٍ سيدَ المرسلين

لمّا بيَّن اللّه تعالى زيفَ طريقةِ المشركين في الصَّدِّ وعدم الإيمان، أتبعَه ببيان صحَّة ما جاءَ به الرّسول ﷺ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ لأنَّ ما دلَّ الدليلُ على صحّته، فهو في باب الاستقامة أبلغُ من الطَّريق المستقيم؛ فألزمَهم الحُجَّة في هذه الآيات، وقطعَ معاذيرَهم وعلَّلهم بأنّ الّذي أُرسل إليهم رجلٌ معروفٌ أمرُه وحالُه، مخبورٌ سرُّه وعلنُه، خليقٌ بأن يُجتبى مثلُه للرِّسالة من بين ظهرانيهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾: (نكب) أصلٌ يَدُلُّ على مَيْلٍ أوْ مَيَلٍ في الشَّيْءِ، ونَكَبَ عن الشَّيْءِ يَنْكُبُ[2]، والنَّكْبُ: اجتنابُك الشَّيء، تَنْتَكِبُ عنه وتَنَكَّبُ عنه[3]، وكل شَيْءٍ مِلْتَ عَنهُ فقد تنكّبْتَه، والأصْل فيهِ أنْ تولّيه مَنْكِبَك[4]، وتَنَكَّبه؛ أيْ: تجنَّبه، وتنكَّبَ القوسَ؛ أيْ: ألقاها على مَنكِبِه، والمُراد بالنّاكِبِ في الآية: العادِلُ عن شَيءٍ، المُعْرِضُ عنه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن خالفَ الحقّ في الدّين حادَ عن النَّجاةِ يومَ الدّين

يُخاطِبُ اللّهُ تعالى نَبيَّه ﷺ قائلًا: (وإنَّك - يا محمَّدُ - لَتَدْعو مُشركي قَومِك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوجاجَ فيه، وهو دينُ الإسلامِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 287، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 196.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكب).
(3) الخليل، العين: (نكب).
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة: (نكب).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 99.

وإنَّ الّذين لا يُصدِّقون بالبعث بعد الموت، وبقيام السّاعة ومُجازاة اللّه عبادَه في الآخرة عادلونَ عن مَحَجَّة الحقِّ، وعن قصد السَّبيل، وهو دينُ اللّه الّذي ارتضاه لعباده، ونصبَ الأدلّةَ عليه)[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ﴾ عاطفةٌ، عطفَتْ جملة (إنّك لتدعوهم) على ما قبلها: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، فالآية السّابقة فيها نفيُ سُؤال النّبيّ ﷺ قومَه أجرًا على الدَّعوة والتّبليغ، وهذه الآية فيها إثباتُ دعوتِه لهم إلى صراطٍ مستقيم، فدلَّ العطفُ على مدحِ النّبيِّ ﷺ، وعلى التّعريض بالمشركين من حيث إنَّهم يتَّهمون مَن لا يريد لهم إلّا كلَّ خير، ويحتملُ أنَّ عطفه عليه لتنزيه دعوة الإسلام من الالتواء والغموض بعدَ أنْ نزّه النّبيَّ ﷺ عن الدّعوة لهم مقابلَ أجرٍ دنيويٍّ فانٍ، وبين كلٍّ من التّنزيهيْن ردٌّ لما صدر منهم من تُهَم شنيعةٍ سابقة إزاءَ الإسلام الكريم ونبيِّه العظيم ﷺ، فيكون بين الجملتيْن تقارنٌ واجتماعٌ في الغرض؛ فجازَ العطفُ للجامع الخياليّ.

رسولُ الرّحمة يُريد بالنّاس خيرًا وهم يظنّون فيه شرًّا

غرضُ توكيدِ الخطابِ:

التّأكيد بـ (إنّ) واللّام الدّاخلةِ على الخبر وهي (المزحلقة) لتأكيد أنَّه ﷺ على طريق مستقيم في دعوتِه وأنّ ما يدعوهم إليه هو الحقُّ الّذي لا ريب فيه، والخطابُ موجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، والمقصودُ به التّعريضُ بالكافرين الذين صدّوا عن دعوته، لأنَّهم أنكروا ما هو واضحُ الحُجَّة بيِّنُ الدّلالة، بعد أن أزاح عنه كلَّ اشتباهٍ لهم عليه، وخلَّصه من كلِّ تهمةٍ وجَّهوها إليه.

الخطابُ مقصودٌ به التّعريض بالكافرين لإنكارِهم الحقَّ الأبلجَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 91، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 142، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 43.

نكتةُ اختيار مُفرَدَةِ الدَّعوة صيغةً ومادّةً:

دعوة النّبيِّ ﷺ حرصٌ واجتهادٌ على الدَّوام

جاء استعمالُ مُفرَدَة الدّعوة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ﴾ كنايةً عن المجهود الّذي بذلَه النّبيُّ ﷺ في سبيل دعوتهم إلى الإيمان باللّه وحدَه، فالدُّعاء فيه معنى النِّداء[1]، ولذا آثرَ صيغةَ المُضارع؛ لأنَّه ظلَّ يُناديهم ويبذلُ لهم ما يستطيعُ في سبيل إقناعِهم، ويُكرر دعوتَهم ونداءَهم مرّاتٍ ومرّات، حتّى عوتب في هذا لأنّه كاد أنْ يُهلك نفسه وجْدًا وحُزنًا على عدم إيمانهم، فقال له ربُّه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: 6]، كما يوحي الدّعاء والنّداء إلى غفلةٍ في المدعوِّ المُنادَى، فالمشركونَ المستكبرونَ وإنْ كانوا قريبينَ منه حسًّا إلّا أنَّه كان يناديهم لبُعدهم المعنويِّ عن الهداية وطريقها، فكان إعراضُهم وإنكارُهم يُبعدهم عن السَّماع، فآثر استعمال الدعاء تصويرًا لذلك الإعراض والابتعاد وشدَّة الإنكار، وكانتِ الدّعوة لهم جميعًا بلا استثناءٍ كما يدلُّ عليه ضمير (هم) ليكونَ أقطعَ لحُجَجهم وأمنعَ لمعاذيرِهم.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ انتهاءِ الغاية:

تمسيكُ النّاسِ بطريقِ الإسلامِ مهمّةٌ شاقّةٌ لدعاةِ الخير

حرف ﴿إِلَىٰ﴾ يدلُّ على انتهاء الغاية وبلوغ المقصد، دلالةً على أنَّه ﷺ كان يبذلُ لهم كلَّ جهد، ليصلَ بهم إلى مقصدِه من الدَّعوة وهو الإيمان باللّه ﷻ، وفي اجتباء هذا الحرف دون (اللّام)، إيماءٌ إلى أنَّ المطلوب منه ﷺ هو دعوتُهم ليبلغوا الغايةَ وهي الصّراطُ المستقيم، وليس أنْ يكون الصّراطُ المستقيم غرضًا للدّعوة، فإنّه لا يتناسب مع سياق الاتِّهام له بدعوتهم إلى طريق باطلٍ فيه التواءٌ لا يتناسبُ مع ما تمسّكوا به من دين الآباء والأسلاف، فالغايةُ هي إيصالُهم إلى دين الإسلام، بحيث يدخلونَه ابتداءً، ويحافظونَ عليه انتهاءً، كما أفاد حرف الانتهاء أنّ طريقَ الدّعوة يحتاجُ إلى صبرٍ؛ لأنّه رحلةٌ طويلةٌ

(1) الرّاغب، المُفردات: (دعا).

وتربيةٌ روحيّةٌ وعمليّةٌ مستمرّة تبغي إيصالَ المدعوِّ إلى النّور والضّياء والطَّريق الواضح في التّعامل مع اللّه تعالى والإنسان والحياة.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَة الصّراط وتنكيرها:

إذا تخلَّص العقلُ من قيودِه والقلبُ من شهواته فلن يُبصرا إلّا طريقَ الإسلام

(الصّراط) هو الطّريق غير المُعوَجّ والنّهج الواضح الّذي لا التواءَ ولا غموضَ فيه، وفي التّعبير به في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دلالةٌ على أنَّ طريق الدّعوة منه ﷺ، هو طريقٌ واضحُ المَعالم أبلجُ، لا يختلف عليه مَن أسلمَ فِطرته للّه تعالى، وأعطى عقلَه حريّةَ الاختيار، وأصلُ (الصّراط) مأخوذٌ من: سَرَطَ؛ أي: ابتلعَ، فإنَّ العرب كانت تقول: سَرطَتْهُ الطّريقَ؛ أي: ابتلعتْهُ، إذا مشى المسافرُ فيها فلم يَستطيعوا رؤيته، وهذا يدلُّ على الانكشاف والوضوح، ونُكِّرت كلمةُ ﴿صِرَاطٍ﴾ تفخيمًا وتعظيمًا، فطريقُ الإسلام طريقٌ عظيم يختلفُ عن سائر الطُّرق باستقامتِه المُلازمة لعقائده وسلوكه وقيمِه المُثلى، كما أن فيه تعريضًا بالمشركين الذين اتَّهموا الإسلام بأنّه مُخالفٌ لما عليه طريقُهم وطريقُ آبائهم، فنتج من ذلك أنَّ طريقة آبائكم الأوّلين ليستْ صِراطًا واضحًا ولا منهجًا حقيقيًّا دعا إليه أحدُ الدُّعاة والمرسلين.

بلاغة وصف (الصّراط) بالاستقامة:

أفاد الوصف التأكيدَ للتّنبيه على قِصَر الطّريق وخُلوِّه من المخاطر

وُصِف الصِّراط بـ(المستقيم) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تأكيدًا لوضوحِه وعدمِ اعوجاجه، فكلمة (الصّراط) تدلُّ على الاستقامة؛ فالصِّراطُ: الطّريقُ المستقيمُ[1]، فلا يُراد من الوصفِ التَّخصيص؛ بل التّأكيد، وفائدةُ التّأكيد التّنبيهُ على قِصَر الطَّريق، فإنَّ الاستقامة هي أقصرُ خطٍّ بين نقطتيْن، فلا يتخلّلُهُ الخطأ أوِ القصورُ أوِ الاضطرابُ أوِ التّناقضُ والتّعارض، كما هو الحال في طرق الضَّلالة والبهتان.

(1) الرّاغب، المُفردات: (صرط).

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الإسلامِ بالصّراطِ المستقيمِ:

الإسلامُ منهجٌ لا غموضَ فيه ولا التواءَ

في جعلِ دعوة النَّبيّ ﷺ النّاس إلى الصَّراط المستقيم استعارةٌ تصريحيّة مشهورةٌ، إذ شأنُ الأنبياء الدّعوة إلى الدّين الحقِّ والمُعتقدِ الصَّواب والأعمالِ الرَّشيدة والأقوالِ النّافعة، وليست الدّعوةُ إلى الطُّرق المستقيمة؛ لكنَّه شبّه (الدين) وهو أمرٌ معنويٌّ بأمرٍ حسّيٍّ بـ (الطريق) تشخيصًا للدّين ومعتقداتِه، وإبرازًا له بثياب الحسيّات كما هو وظيفةُ الاستعارة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أيْ: إلى دين الإسلام الّذي هو كالصِّراط المستقيم، وبذلك يكون أبلغَ ردٍّ لهم في اتّهام الإسلام بالانحرافِ عن ديانة الآباء، وأقوى تعريضٍ بما كان عليه آباؤهم في معتقداتهم من انحرافِ طريقهم الّذي لا يوصِّلُهم إلى رضا الله تعالى ورحمته؛ لما فيه من التواءٍ وانحرافٍ وميلٍ عن دين إبراهيم عليه السلام.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

بيانُ التّقابلِ بين حرصِ الدّاعي وتفريطِ المدعوّ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ عاطفةٌ، حيث عطفَتْ هذه الجملةَ على السّابقة لبيان موقفِ المخذولين من دعوة رسول الله ﷺ، ففي العطف معنى التّقابل بينَ مَن يدعو النّاس إلى المنهج الواضح حرصًا على نجاتهم، ومَن يرفضُ هذه الدعوة حرصًا على الأهواء.

غرضُ التّوكيدِ:

مواجهةُ الاتهاماتِ السّابقةِ بالتّأكيدِ مُطابقٌ لمُقتضى الحالِ

التأكيدُ بـ (إن) و(اللّام المزحلقة) باعتبار أنّه مسوقٌ للتّعريضِ بالمُنكرين على ما دعاهم إليه النّبيّ ﷺ[1]، ولا ننسى أنَّ الخطاب في مقام الحِجاج والجِدال إزاءَ تلك الاتّهامات السّابقة للإسلام والنّبيّ ﷺ، وأنّهم كانوا مُتردِّدينَ ومُنكرين لصدقهما؛ فكان الرّدُّ عليهم يتطلّبُ توكيدَ خسارتهم، وتحقيقَ ابتعادهم عن الحقِّ والحقيقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 98.

علَّةُ العدولِ عن الإضمارِ إلى إظهارِ الاسمِ الموصولِ:

عــدمُ الإيــمــانِ بالبعثِ يُعمي البصائرَ ويختمُ على القلوبِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ عدولانِ، حيثُ عدلَ أوّلًا عن المُضمَر إلى المُظهَر، فلم يَقُلْ: (وإنَّهم عنِ الصِّراط لناكبون)، ثمّ عدلَ ثانيًا عن التَّعبير بالاسم الظّاهر (الكافرين) إلى التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وذلك لما تُنبئ به الصِّلة من سبب تنكُّبهم عن الصِّراط المستقيم، وذلك أنَّ سببَهُ عدمُ إيمانهم بالآخرة[1]، ولو آمنوا بالآخرة لاستقاموا على الطَّريقة ولما تنكَّبوا عنها، فالكفرُ باليوم الآخر علَّة الانحراف والضّياع؛ لأنَّ مَن لا يؤمنُ بالبعث والنُّشور والحساب على الأعمال أفسدَ في الأرض، وأشاعَ فيها الخراب، واعتدى على العباد، وأعملَ فيهم القتل والظُّلم والهتك، وهذا هو المُراد بفساد السّماوات والأرض ومَن فيهنَّ، وفي هذا تأشيرٌ على أهميّة عقيدةِ البعث بعد الموتِ، وأنَّها العقيدةُ العاصمةُ عن الفساد والإفساد بالنِّسبة لنظام العالم كلِّه، كما أفاد العدولُ عن الضَّمير سريان هذا الحُكم في المخاطَبين وغيرهم على مرِّ العصور والدُّهور.

فائدة إيثار نَفي الإيمان على إثبات الكفر:

إظــهــارُ خبيءِ الضَّلالات وعللِ الانــحــرافــات وخُبثِ الوثنيّات

آثر النّظم نفيَ الإيمان في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون إثبات الكفر، فلم يَقُلْ: (وإنّ الذين يكفرون بالآخرة)؛ وذلك لأنَّ المقصود هو النصُّ على عدم إيمانهم بالآخرة دونَ الكفر بها والجحودِ لها، فكانَ عدمُ إيمانهم هذا سببًا لتنكُّبهم عن طريق الحقّ، ثم إنَّ أثرَ الإعلان عن غير المؤمنين بالآخرة بأنّهم يكفرون بها فيه عنفٌ في الخطاب والحجاج، والقرآن الكريم حريصٌ على أنْ تكون لغتُه الحجاجيّةُ صالحةً لكلِّ زمان ومكان، والخطابُ موجّهٌ لكلِّ مَن لا يعتقد بعقيدة البعث، فلم يُسمِّهم كفارًا بالآخرة؛ بل عدمُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 98.

مؤمنين بها ليكونَ ألطفَ وقْعًا وأدعى للإجابة إلى تلك العقيدة الحقَّة، وفي ذِكْر قيد عدم الإيمان بالآخرة إشعارٌ بعلَّة الحكم؛ فإنّ الإيمان بالآخرة، وخوفَ ما فيها من الدّواهي من أقوى الدَّواعي إلى طلب الحقِّ وسلوك سبيله[1].

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

إرغـامُ العقلِ عـلى هـوى النَّفسِ يُفقِدُ صاحبَه بلوغَ أدنى درجاتِ الحسِّ

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للتّعدية؛ أيْ: لا يؤمنون بها ولا يعترفون بوجودها، حيث لم يقبلوا وجودَ حياة أخرى، وأفادت هذه التّعديةُ تشخيصَ الأمر الّذي لم يقعِ التّصديقُ فيه، وهو وجودُ الحياة الآخرة الّتي تكونُ بالبعث بعد الموت، والنّهوض مجدَّدًا للحساب والجزاء يومَ الدّين، وهؤلاءِ الكفّار على مرِّ الأزمان كانوا يرفضون هذا المبدأ الدّينيَّ العظيم، الّذي تنتظم به الحياة ولا تسودُ فيها شريعةُ الغاب، كما تنبئ عنه آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم، ممّا ذكره القرآن من تلك المحاورات حول البعث، من مثل قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 77 - 79].

سرُّ اختيار لفظ (الآخرة) دون مرادفاتها:

إثـبـاتُ الآخـرة نفيٌ ضمنيٌّ لأنْ تكون الدُّنيا هي الآخـرةَ كما هو معتقد المشركين

في إيثار اسم (الآخرة) دون غيره؛ كـ(القيامة والبعث) تعريضٌ بأنهم غارقون في (الأولى)، بحيث لم تترك لهم مجالًا لمجرَّد التفكير في شأن الآخرة، فرفضوها وأبَوها بالكليَّة، وفي لفظ (الآخرة) إشارةٌ هدائيَّة بديعة، حيث إنَّ الحقَّ ﷻ يُخاطبُ نفوسَهم بأنْ تتدارك ما هي فيه، وتُقبلَ على الآخرة قبلَ فوات الأوان، كما أنَّ فيه رفضًا لأنْ تكون الدُّنيا هي الآخرة كما يزعمون ضِمْنًا، فالمشركُ حين ينفي البعث فهو يُثبت أنَّ الدُّنيا هي الحياة الآخرة؛ بل هي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 145.

الأولى والآخرة عنده ولا حياةَ بعد الموت، ومن ثمَّ يُقبل عليها بنَهَم دونَ رادعٍ أوْ زاجرٍ، فيُفسد ما شاء له أنْ يُفسد في الحَرْث والنَّسل، ففي ذِكْر الآخرةِ نفيٌ لهذا المعنى الضّمنيِّ مع إثبات الحياة الآخرة ابتداءً، وأفاد تعريفُ (الآخرة) بعهديّتِها ومعلوميّتِها وتعيُّنِها عند أهل الحقّ؛ لأنَّ مَن خلق الإنسان في الحياة الأولى قادرٌ على أن يُعيدهم بتخليقٍ آخر في الحياة الآخرة، ويُحاسبهم على ما قدَّموا في حياتهم الأولى.

دلالةُ استعمالِ حرف ﴿عَنِ﴾:

حرف ﴿عَنِ﴾ موضوع لمعنى المجاوزة؛ فقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلصِّرَاطِ﴾؛ أيْ: متجاوزيه كلَّ التجاوز إلى غيره، وهو الطّريق المُعوجّ طريق الهوى.

بلاغة الإطناب في ذِكْرِ لفظِ الصِّراط:

آثر النَّظم ذِكْر الصِّراط في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَـٰكِبُونَ﴾ مع تقدُّم ذِكْره في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فلم يَقُلْ: (وإنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عنه لناكبون)؛ فدلَّ ذِكْرُه بلفظه المُظهَر على أهميَّته، وللتّنويه بضرورة شأنه، وللتّنبيه على أهميَّة الوسائل في بلوغ المقاصد، وللتّأكيد على المرء أنّه لن يبلغ مقصده ما لم يكن معتدلَ المنهج، وأنَّه ما تنكَّب أحدٌ طريقَ الحقِّ إلّا لانشغاله بوسيلةٍ شاغلةٍ من الهوى والضّلال، وأنَّ هذا الصَّراط واحدٌ لا متعدِّد ولا متشعّبٌ، ولو لم يذكره لظُنَّ أنَّ المقصود بيانُ صفة الكافرين في كونهم ناكبينَ عن الإسلام، والمقصودُ بيانُ عن أيِّ شيءٍ هم ناكبون، كما أنَّ في حمْل الصِّراط على معنى الجنس ما يُؤكِّد فائدةَ ذِكْره كما سيأتي في النُّكتة اللّاحقة.

ليس المقصود بيان صفة الكافرين بأنّهم ناكبون؛ بل بيان عن أيِّ شيءٍ هم ناكبون

نوعُ التّعريف في لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ ودلالتُهُ:

الصّراطُ الّذي تنكّبوه ابتداءً هو جنس الصّراط، وأمّا الإسلامُ فتحصيلُ حاصلٍ

(أل) في لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ معرّفةٌ، والتّعريف للعهد، والمعهود هو الصّراط المستقيم المذكور، أوْ للجنس، على معنى: إنّهم عن جنس الصّراط لناكبون، ومن باب أوْلى هم عن الصّراط المستقيم الّذي تدعوهم إليه لناكبون، وقد رُجِّح هذا الوجه؛ لأنَّه أدلُّ على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم، لما أنَّه يُنبئ عن كون ما ذهبوا إليه ممّا لا يُطلق عليه اسمُ الصراط أصلًا؛ فكان تعريفُ الجنس أتمَّ في نسبتهم إلى الضَّلال بقرينة أنّهم لا يُؤمنون بالآخرة الّتي هي غاية العامل من عمله، فهم إذن ناكبونَ عن كلِّ صراطٍ موصِل، إذ لا همّةَ لهم في الوصول[1].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾:

(ناكبون) كنايةً عن صفةِ الإعراضِ والتّولّي

النّاكبُ هو العادلُ عن شيءٍ، المُعرض عنه، المُجتنب إيّاه، وكأنّه مُشتقٌّ من المَنكِب وهو جانبُ الكَتِف؛ لأنَّ العادل عن شيءٍ يولّي وجهه عنه بجانبه[2]، فالتّعبير بالنَّكْب على هذا كنايةٌ عن الإعراضِ والاجتناب والمجافاة والتّكذيب بالإسلام، ودخلت (اللّام المزحلقة) على اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لتدلَّ على الخبر لتأكيد معناه، وأفاد التّعبير باسم الفاعل دلالةَ الرّسوخ والاستمرار على التّكذيب والإنكار.

فائدةُ تقديم ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ على المُسنَد ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾:

لا يحيد عن الصّراط إلا منكر كاره للحق معرض عن طريق الله

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ على المُسنَد ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ للاهتمامِ والاختصاص، فهم تنكّبوا عن الطَّريق الّذي لا طريقَ غيره، يعبُر به النّاس إلى الحق وإلى النَّجاة، ومن فوائد هذا التّقديم مراعاةُ الفواصل، وقد اجتمعت في هؤلاء المدعوّين أنّهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 254، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 99، والخليل، العين: (نكب).

﴿مُنكِرُونَ﴾، ﴿كَٰرِهُونَ﴾، ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾، ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾، ومن ثمَّ فإنّهم لا ناصر لهم من عذاب الله تعالى.

بلاغةُ الاتساقِ في أسماءِ الفاعلِ في الفواصلِ:

التّعبيرُ بالفاعليّة في الفواصل القرآنيةِ دالٌّ على أنَّ الأوصافَ المذكورةَ هي سجيّةُ الباطلِ

يُلحظ في هذه الفواصل الّتي صيغت على وزن اسم الفاعل من مثل: ﴿مُنكِرُونَ﴾، و﴿كَٰرِهُونَ﴾، و﴿مُّعۡرِضُونَ﴾، و﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ أنّها صيغت على الفاعليَّة، سواءٌ من الرُّباعي كما في فاصلتَي ﴿مُنكِرُونَ﴾، و﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ أوْ من الثلاثيِّ، كما في فاصلتي ﴿كَٰرِهُونَ﴾، و﴿لَنَٰكِبُونَ﴾، وبناءُ هذه الفواصل على الفاعليّة دالٌّ على أنَّ معانيَها وأوصافها هي من سجاياهم وطبائعهم المُعوجّة الّتي جُبِلوا عليها، فقادَتْهم إلى استساغة الإنكار والكراهة والإعراض والتّنكُّب للحقِّ وأهله.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصِّراط والسَّبيل والطَّريق:

الصّراط المنهجُ القويم، والسّبيل ما فيه معنى الخير، والطّريق لا يُستعمل في الخير إلّا بقرينة

(الصّراط) هو الطّريق المستقيم[1] الّذي لا اعوجاج فيه، ويُطلق مجازًا استعاريًّا على المنهج الحقّ وهو دين الله لكونه مستقيمًا، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾ [مريم: 36] وقال عزَّ شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشّورى: 52 - 53]، فالصّراط في هذه الآيات هو المنهجُ الحقُّ وهو دين الله، وسُمّي بذلك لكونه الطّريق المستقيم الموصِل إلى مرضاته بيُسْرٍ وسُهولةٍ وسرعةٍ مع تجنُّب العقَبات، و(السبيل) كثر استعماله في القرآن في الخير، حتّى إنّه وقع في الرُّبع الأوّل منه

(1) الرّاغب، المُفردات: (صرط).

في بضعٍ وخمسين موضعًا، أوّلُها قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 273]، ولم يَقعْ ذِكْر الطَّريق مُرادًا به الخير إلّا مقترنًا بوصفٍ أوْ بإضافة، ممّا يُخلصه لذلك كقوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: 30][1]، والسّبيلُ طريقٌ فيها سهولة[2]، وعلى ذلك فهو أخصُّ من الطَّريق؛ فكلُّ سبيلٍ طريقٌ؛ وليس كلُّ طريقٍ سبيلًا، وبهذا يتفرّدُ لفظُ الصّراط في الوصف بالاستقامة المُطلقةِ الّتي تفيد مجازًا كمالَ اعتدال المنهج الإلهيّ، وأنّه أقصرُ الطّرق الموصِلة إلى المَقصد الأساس مع السُّرعة، وهو رضا الله تعالى.

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 80، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/ 264.
(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 395.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»